الحرية الدينية ...مفخرة الحضارة الإسلامية
قراءة في الفعل التاريخي

د. نجيب بن خيرة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

تظل المبادئ و النظريات تسبح في أجواء عالية حتى تبرهن على التحقق في الواقع الملموس ، وتحوّل المبدأ النظري إلى الفعل المنظور . والاختلاف والتنوع سنة ثابتة في الكون ، وقانون اجتماعي يحكم البشر منذ الأزل ..و البشر وهم يخوضون تجاربهم في الحياة يدركون تعدد الانتماءات ، وتباين القناعات ، ويحاولون جاهدين أن يجدوا مربعات للالتقاء و التفاهم و التعايش ..في حين تظل الثوابت هي شعار كل أمة تمدها بالخصوصية و التمايز ، وتضمن لها الفعل و الصيرورة و البقاء .

وقد استطاعت الثقافة الإسلامية أن ترسي القيم و الفضائل في المجتمع الإسلامي حيال (الآخر) ، وتجعل المسلم يتعامل معه من منطلق الاختلاف والتنوع ، وواجبه أن يستوعب ما يلائم طبيعته وفكره، ولا يتعارض مع مرجعيته العليا ، ووحيه الأعلى .

وقد شهد الأباعد قبل الأقارب أن حضارة الإسلام لم تكن (حضارة الأنا)، تستمد قوتها من عرقية مقيتة ولا من عصبية ضيقة ، تهين الإنسان وتلغي خصوصياته ، وتستعدي على دينه وفكره ، بل كانت حضارة التسامح التي ظلت ولا تزال تمد الأيادي مشرعة لاحتضان الآخر والحرص على خصوصيته ، ومد جسور التعاون معه على العيش المشترك ، و البناء المتواصل ، في ظل الحرية والإخاء الإنساني المنشود .

ويظهر هذا التسامح في رعاية الحريات الدينية، فالمسلم يؤمن بأن عقيدته أصح العقائد ، يؤمن بها ويوقف حياته من أجلها ، وهي الحق وغيرها هراء ، ولكنه لا يحمل الناس على عقيدته بالقوة المرهبة ، بل يعرض دينه على الناس في أجمل عرض، وأرقّ عبارة ، وأحسن جدال ..

فا للحرية الدينية بُعد أساسي في حياة الكائن البشري، حيث يسعى إلى امتلاكها و العيش وفق مقتضياتها ، فيمارس طقوسه ، ويؤمن بمعتقداته ، بصفتها جزءا منه لا تنفصل عنه ، وحقه الطبيعي هذا مكفول منذ الأزل ، يختار فيعتقد ، ويؤمن فتتحرك

جوارحه بالعبادة وأداء الشعائر ، ويمضي في سبيل عقيدته يعيش وفقها ، وينظم حياته على ضوء تكاليفها ...

وفي السنوات الأخيرة تعرَّضت الثقافة العربية والإسلامية لتحديات عالمية؛ لعل أبرزها نظرة ذلك (الآخر) إليها خصوصاً بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر المؤسفة، والتي من نتائجها آثارا وخيمة على الوجود الإسلامي في بلاد الغرب ، وتشكلت على إثرها صورة أكثر نمطية مما سبقها، وما تأسَّس عليها من تجديد البعض الدعوة إلى تصادم الحضارات وتصارعها.

ولا شك أن الحرية الدينية أخذت حيّزا كبيرا في الواقع المعاصر ، و العالم يعرف تحولات خطيرة على جميع الأصعدة يسهم الدين بقوة من قريب أو من بعيد في صوغها وتوجيه مسارها بعد عقود من العلمانية التي سادت المجتمعات الأوروبية الحديثة و المعاصرة ، و اليوم يتقهقر الفكر العلماني ليرجع الدين إلى سابق عهده يرسم منهج الفكر ، ويضبط منازع النفس سلبا أو إيجابا ..وهذا الحضور الجديد يولد بلا ريب الصراعات بين أفكار وسياسات تقف في كثير من الأحيان عقبة في وجه الحوار المتمدن بين الأمم و الشعوب .

وبمناسبة انعقاد المؤتمر الدولي بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية حول (الحرية الدينية في الإسلام..) وإبرازاً للحقائق التاريخية البارزة حول حرية التدين في ظل الدول التي سادها حكم الإسلام وتعاليمه على مر قرون من الزمان ، و اعتمادًا على أوثق الشواهد التاريخية التي تؤكد ما تمتع به الآخر من حقوق وضمانات التي كفلها له التشريع الإسلامي، وتم تمثلها وتطبيقها عبر العصور؛ وتوكيدًا للقيم الإسلامية والإنسانية للتعايش مع الحضارات والثقافات الإنسانية الأخرى؛ وعرضًا للنماذج الإيجابية المشرقة في الحضارة العربية والإسلامية؛ لتجارب العيش الواحد والتضامن والتراحم والتوادّ مع (الآخر) أقدم هذه المداخلة المتواضعة مكتفيا بالتأشير على بعض المحاور منها :

1 ـ الحرية الدينية في التأسيس القرآني

2 ـ العلاقة مع الآخر في إطارها الإسلامي

3 ـ التساكن الديني في المجتمع الإسلامي ..قراءة في الفعل التاريخي

4 . الحرية الدينية بين الواقع و المثال

1 . الحرية الدينية في التأسيس القرآني :

لعل أهم مصدر في تأسيس التصورات في الإسلام هو القرآن الكريم الذي تلتف حوله جميع الفرق و المذاهب على اختلاف توجهاتها ، وتباينها في التأويل و التفسير.

وقد حدد الإسلام منذ البداية في الدعوة للإسلام عدم إجبار الناس على الدخول في الإسلام ، قال تعالى :" لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي " (البقرة 256)، ويقول سبحانه مخاطبا الرسول صلى الله عليه وسلم: " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكره الناس حتى يكونوا مؤمنين" (يونس4) ، وقال تعالى:" فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر "(الغاشية 5).

وعدم الإكراه يبقى الوسيلة البارزة في بناء الحضارة الإنسانية ، وتشييد المجتمع الإنساني البعيد عن الحساسيات الدينية و الثقافية ، الساعي إلى بناء الثقافة المنشودة ، وهي ثقافة السلم العالمي التي تنكر سلطة الآبائية كمنطلق للمعتقد و الممارسة ، وتزدري الفكرة الفرعونية التي تُنمط الآخر ، وتجعله يدور في فلك المستبد الغشوم ، المتسلط باسم الدين حينا ، أو باسم السياسة أحايين أخرى . : " وقال فرعون ذروني أقتل موسى فليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد " إنه الأنموذج الإنساني الخطير المؤمن بالعنف كوسيلة للإصلاح و التغيير عبر سياسات القتل الجماعي ، والقمع الفكري المنظم ، أو بعبارة أخرى " الإرهاب الرسمي " الذي تمارسه المؤسسة الرسمية عبر التاريخ .

لقد وضع القرآن الكريم لبنات عالمية إنسانية جديدة وغير مسبوقة ، فقد بدأ بالتأكيد على أن الله سبحانه وتعالى هو رب العالمين " الحمد لله رب العالمين "(الفاتحة1) ، وليس رب شعب دون شعب ، ولاأمة دون غيرها من الأمم ، ثم أكد على أن الإنسان الذي كرمه الله بأن نفخ فيه من روحه ليكون ربانيا هو آدم أبو البشر أجمعين. " وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين " (الحجر 28-29).

ولذلك فإن التكريم الإلهي هو لمطلق الإنسان " ولقد كرمنا بني آدم " (الإسراء70)، وليس هذا التكريم حكرا لشعب دون الشعوب ، ولا لأبناء دين من الأديان أو حضارة من الحضارات .[1]

بل إن الإسلام جعل أساس القرب من الله سبحانه ، هو التقوى و القرب و العمل الصالح " إن أكرمكم عند الله أتقاكم "(الحجرات12)، ولم يحتكر الإسلام النجاة لأبناء شريعة دون الشرائع الأخرى التي جاءت بها الرسالات السماوية في إطار الدين الإلهي الواحد ، وإنما أكد على أنه " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " (الزلزلة7-8)،وأشار إلى أن الذين آمنوا بوحدانية الذات الإلهية وبالغيب و اليوم الآخر و الحساب و الجزاء، وعملوا صالحا في حياتهم الدنيا وفق أية شريعة من الشرائع الإلهية الحقة ، لا يمكن أن يستووا بالذين جحدوا الحق بعد أن عرفوه ، فكفروا بالألوهية الواحدة وبالغيب ، ولم يعملوا صالحا وتنكبوا كل شرائع السماء [2].

" إن الذين آمنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين من آمن بالله و اليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون"(البقرة62). و القرآن إذ يدعو إلى حرية المعتقد وممارستها دون بغي أو تسلط من أي جهة كانت ، دينية أم مدنية ، فإنه يبرز التمايز و التغاير بين بني البشر على أنه نعمة يشعر في ظلها الإنسان بالوجود ، فهو ليس نسخة من غيره ، له من القدرات و الطاقات و المواهب ما يجعله يصنع الحياة ، وينطلق في أرجائها ، ليحقق سر وجوده ، وعمارته للكون الذي سُخر له .

وفي أكثر من صورة ووفق أشد الصور واقعية ووضوحا يحدثنا القرآن عن التغاير بين الناس فيقول : " لكل جعلنا شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات "(المائدة48)،"ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم " (هود118-119)، " تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض "(البقرة253)، " ولو شاء الله ما اقتتل الذين من

---

1) . محمد عمارة . **السماحة الإسلامية** . ط1، القاهرة : نهضة مصر للطباعة و النشر ، 2006م ، ص09.

2) . المرجع نفسه .

بعدهم ، من بعد ما جاءتهم البيّنات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد " (البقرة253) .

بل إن القرآن انطلاقا من منظوره الواقعي لحركة التاريخ البشري يبين في أكثر من موضع أن الأكثريات البشرية تقف دائما بمواجهة الحق الذي لا تنتمي إليه إلا القلة الطليعية الرائدة ، نظرا لما يتطلبه هذا الانتماء من جهد وتضحية وعطاء لا يحتمله الكثيرون " **بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون**" (المؤمنون70)، وكثيرا ما يكون اختلاف الألسنة والألوان ، الذي يعقبه تغاير الثقافات وتعدد الأعراق ، أحد العوامل الأساسية التي تكمن وراء التنوع التاريخي الذي هو بحد ذاته صيغة من صيغ الإبداع الإلهي في العالم " **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون**" (الروم20)، " **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** "(الروم22).

أما عن الهدف من وراء هذا التغاير فإن القرآن يجيب " **ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** " (البقرة251)، " **ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**" (الحج40).

إن هذا التغاير و التدافع المركوز في جبلة بني آدم يقود إلى تحريك الحياة نحو الأحسن ، وتخطي مواقع السكون و الفساد ، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الراشدة كي تشد عزائمها قبالة التحديات ، وأن تسعى لتحقيق المجتمع المؤمن الذي ينفذ أمر الله وكلمته في العالم [1].

والإيمان في الإسلام يجيء وليد يقظة عقلية واقتناع قلبي ، إنه استنابة الإنسان العاقل للحق ، ثم اعتناقه عن رضا ورغبة ، وقد عرض الإسلام نفسه على الناس في دائرة هذا المعنى المحدد ، غير متجاوز له في قليل ولا كثير " **وقل الحق من ربكم فمن شاء ، فليؤمن ومن شاء فليكفر**"(الكهف29).

---

1) . عماد الدين خليل . **الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين** . ط1، بيروت : دار الفكر المعاصر ، 2002م ، ص10-11

وصاحب الرسالة عليه الصلاة و السلام سلك هذا المسلك في الدعوة إلى الله وإبلاغ رسالته " **نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد** "(ق45)، و القارئ اللبيب يرى أن الكتاب العزيز قد تناول المعارضين له و الكافرين به بأساليب شتى ليس من بينها قط إرغام أحد على قبول الإسلام ، وهو عنه صاد ،كل ما ينشده الإسلام أن يعامل في حدود النصفة و القسط ، وألا تدخل عوامل الإرهاب في صرف امرئ انشرح صدره به .

ولم يكن على الإسلام من بأس ، ولن يكون عليه بأس أبدا لو أصرَّ ألوف المنتسبين إلى الأديان الأخرى على البقاء في معتقداتهم ، فكلمة " **لكم دينكم ولي دين**" (الكافرون6) ، وكلمة " **..لي عملي ولكم عملكم** "(يونس41) ، هذه الكلمات وأمثالها مما تردد في صدر الإسلام هي التي ظلت تتردد في أواخر العهد المدني ، ويخاطب بها كل إنسان ، فالإسلام لم يفرض على النصراني أن يترك نصرانيته ، أو على اليهودي أن يترك يهوديته ، بل طالب كليهما - ما دام يؤثر دينه القديم - أن يدع الإسلام وشأنه يعتنقه من يعتنقه ، دون تهجم مُرّ أو جدل سيء[1].

و الواقع أن الإسلام لم يشتبك في قتال مع النصارى أو اليهود إلا بعد أن أن وصل هؤلاء وأولئك إلى منزلة في السلوك و السياسة عريت عن الشرف و العدالة ، وبعُدت عن مرضاة الله كما يصورها موسى وعيسى أنفسهما .. ومع ذلك فإن القتال الذي وقع لم يشترط الإسلام لانتهائه شروطا يرضاها الجميع ، وتتفق مع أفهام الفريقين المتنازعين مهما ضاقت أو اشتطت ، هي العدل و الرحمة ودائرة العدل و الرحمة رحبة الآفاق ، واسعة الأقطار ، يتعاون فيها أهل الأديان جميعا على حسن الجوار ، وكرم اللقاء بل إنها تتسع للمؤمنين ، ولمن لا يدين بدين .

إن الحرية الدينية التي كفلها الإسلام لأهل الأرض لم يعرف لها نظير في القارات الخمس ، ولم يحدث أن انفرد دين بالسلطة ، ومنح مخالفيه في الاعتقاد كل أسباب البقاء والازدهار مثل ما صنع الإسلام [2] .

---

1) . محمد الغزالي . **حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة** . ط3، القاهرة : نهضة مصر ، 2005م ص72-74.

2) . المرجع نفسه . ص75.

بل إن الإسلام يرى أن مجتمعه يضم أناسا مختلفي الدين وقد يثور بينهم نقاش حول العقائد التي يؤمنون بها ، فيتحمسون لنصرتها ، كلٌّ يريد أن يثبت الحق الذي ينتمي إليه ، فأمر أتباعه بالتزام الأدب و الهدوء في الجدال مع المخالف في الدين. " ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون "(العنكبوت46) .

ولا بأس بمساجلات عقلية تسودها روح المباريات الرياضية ، وتترك فيها الفرصة للإنسان أن يتأمل ما عنده ، ويكشف قيمته الحقيقية ، والقرآن الكريم به حشد رائع من الاستدلالات الوثيقة التي تناولت بالرد الشبه السائدة لدى معارضيه ، و الشبه التي يمكن أن يختلقها الجدل ، ولن تعرف الأعصار المتطاولة حتى قيام الساعة كتابا مثل القرآن الكريم يعرض قضية الإيمان ويدعمها بأنواع الأدلة معتمدا على حرية العقل و الضمير وحدها في إحقاق الحق وإبطال الباطل .

" أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون " (الأنبياء 21-24) ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم في دفاعه عن التوحيد يطلب من خصومه الدليل وينظم في دفاعه عن توحيد الأنبياء الذين سبقوه و الكتب التي جاءوا بها .

إن الجو الذي ينتظر ميلاد الإيمان الصحيح فيه هو الحرية النبيلة ، والطمأنينة الشاملة وهو ما ينشده الإسلام للناس كافة ، قد يؤمن بعض الناس بالرشوة وقد يؤمن بعض آخر بالسيف ، وقد ينتقل الإيمان بطريق التوارث من الأسلاف إلى الأخلاف ، لكن المثل الأعلى الذي رسمه القرآن الكريم للإيمان هو تفكير هادئ واع في آفاق الأرض و السماء ، يعود المرء منه وهو معلق القلب برب الأرض و السماء [1].

2 ـ العلاقة مع الآخر في إطارها الإسلامي [2]:

---

1) . المرجع نفسه . 77-78.

2) . أنظر : نجيب بن خيرة . ثقافة الحوار مع الآخر في الحضارة الإسلامية . مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية . العدد 24ذي الحجة 1428هـ /ديسمبر 2007م ، ص193.

إن التعدد في المخلوقات وتنوعها سنة الله في الكون وناموسه الثابت ، فلكل شيء في هذا الخلق طبيعته وخصائصه وصفاته التي تقارب غيره أحيانا ، وتتنافر عنها في أحايين أخرى ، وهكذا فطبيعة الوجود في الكون أساسها التنوع و التعدد .

والإنسانية خلقها الله وفق هذه السنة الكونية فاختلف البشر إلى أجناس مختلفة وطبائع شتى ، وكل من تجاهل وتجاوز أو رفض هذه السنة الماضية لله في خلقه فقد ناقض الفطرة و وأنكر المحسوس .

وقد أكدت الآيات في القرآن الكريم أن اختلاف البشر في شرائعهم هو أيضا واقع بمشيئة الله ومرتبطة بحكمته . يقول الله تعالى : " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا " (المائدة 48).

قال ابن كثير : " هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام المتفقة في التوحيد " . [1] وفي معنى الآية يقول الشيخ محمد رشيد رضا : " (لوشاء ربك) أيها الرسول الحريص على إيمان قومه الآسف على إعراض أكثرهم عن إجابة دعوته واتباع هدايته (لجعل الناس أمة واحدة) على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ، لا رأي لهم فيه ولا اختيار ، وإذا لما كانوا هم هذا النوع من الخلق المسمى البشر وبنوع الإنسان ، بل كانوا في حياتهم الاجتماعية كالنحل أو كالنمل ، وفي حياتهم الروحية كالملائكة مفطورين على اعتقاد الحق وطاعة الله عز وجل ، فلا يقع بينهم اختلاف ، ولكنه خلقهم بمقتضى حكمته كاسبين للعلم ، لا ملهمين ، وعاملين بالاختيار . [2]

فالإسلام يعترف بوجود الاختلاف وعدم إمكانية جمع الناس على دين واحد ، ويطلب من الدعاة ورثة الأنبياء القيام بواجب البلاغ في الدنيا واستفراغ الوسع في الإرشاد و النصح للعالمين ثم الله يتولى - بحكمه وعدله - يوم القيامة حساب المعاندين ، وجزاء المؤمنين .

---

3) . تفسير القرآن العظيم . ج2/ص67.

4) . تفسير المنار . ج12/ص193.

بل وضع الإسلام للحوار قواعده وآدابه ، ولعل أبرز هذه القواعد والآداب ما ورد في سورة "سبأ " كان الرسول عليه الصلاة والسلام يحاور مجموعة من غير المؤمنين شارحا ومبينا ومبلغا ، ولكنهم كانوا يصرون على أن الحق إلى جانبهم فحسم الحوار معهم على قاعدة النص : " وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين " سبأ 24، لقد وضع الرسول نفسه في مستوى من يحاور تاركا الحكم لله ، وهو أسمى تعبير عن احترام حرية الآخر في الاختيار . وعن احترام اختياره حتى ولو كان على خطأ ، وذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال القرآن الكريم في الآية التالية مباشرة "قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون " واعتبر اختياره للحق بأنه إجرام في نظرهم ووصف اختيارهم للباطل وهم على باطل بأنه مجرد عمل ، ثم ترك الحكم لله . " قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم " .

إن احترام حرية الاختيار هنا ليس احتراما لخطأ ، فتسفيه وجهة نظر الآخر ومحاولة إسقاطها ليس الهدف الذي يرجوه الحوار الجاد الذي يكوِّن أحد أهم عناصر الاحتكاك الفكري و التكامل الثقافي و التدافع الحضاري بين الناس ، ومن دون ذلك يركد الذهن ، ويفقد التعطش إلى المعرفة التي هي عود الثقاب الذي يلهبه ، وتتحول مساحات الفكر إلى بحيرات آسنة ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : " ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين " .(البقرة 251).

بل لقد جعل الإسلام من الآخر الديني جزءً من أولي الأرحام عندما أقام الأسرة – وليس فقط الأمة– على التنوع الديني. فأصبحت الزوجة الكتابية سكَنا يسكن إليها المسلم، وموضع محبته ومودته، بينهما ميثاق الفطرة.. حتى لكأنهما ذات واحدة يجمعها لباس واحد: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة:187).(10)

ولأن فلسفة الإسلام وهي تتطلع إلى المثالي، لا تغفل عن مكنونات "الواقع" تميزت بالعدل الذي لا يضع كل أهل الكتاب في سلّة واحدة وصنف واحد، بينما ميّزت بين فرقائهم بحسب موقف كل فريق من "الكلمة السواء"، التي هي التمايز في الشرائع بإطار وحدة الدين: "الأنبياء أبناء علاّت، دينهم واحد، وأمهاتهم شتّى" (متفق عليه). ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ

شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64).

فأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران: 113-115).

وليس من العدل أبدًا التسوية بين هؤلاء الذين تفيض أعينهم من الدمع مما عرفوا من الحق، وبين الذين دخلوا في لون من الشرك والكفر: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾(المائدة:72).

لكن الإسلام مع هذا التمييز بين فرقاء أهل الكتاب، والعدل في التمييز بين مواقفهم من "الكلمة السواء"، قد جعل حساب كل ذلك إلى الله وحده يوم الدين. أما في الدنيا والدولة والتكريم الإلهي لمطلق بني آدم، فقد قرر الإسلام لكل هؤلاء الفرقاء ذات الحقوق وذات الواجبات التي قررها للمسلمين المؤمنين بكل الكتب وكل النبوات والرسالات.. وبنص عبارة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده لنصارى نجران وكل من ينتحل دعوة النصرانية: "فإن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم".

تلك هي مرتكزات التعايش مع الأديان الأخرى، في القرآن الكريم، وفي التطبيق النبوي لهذا القرآن الكريم."[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يخيّر الناس بين الدخول في الإسلام, أو البقاء على دينهم, ولكن بعد أن يعقد معهم عهدًا يطمئنّون به على دينهم وأعراضهم وأموالهم, ويتمتّعون بذمّة الله ورسوله, وفي ذلك يروي بريدة رضي الله عنه وصيّة من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال عقد لواء جيش أو سرية لأحدٍ من أصحابه إذ قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في

---

1). محمد عمارة . **فلسفة الإسلام في التعايش مع الآخر الديني و الثقافي** . مجلة حراء . العدد09(أكتوبر . ديسمبر) 2007م .

خاصته بتقوى الله, ومن معه من المسلمين خيرًا, ثم قال (اغزوا بسم الله في سبيل الله, قاتلوا من كفر بالله, اغزوا, ولا تغلوا, ولا تغدروا, ولا تمثلوا, ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيتَ عدوَّك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال, فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم, ادعهم إلى الدخول في الإسلام, فإن فعلوا فاقبل منهم, وكفَّ عنهم, ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين, وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين, وعليهم ما على المهاجرين, فإن أبوا أن يتحوَّلوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين, ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء, إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)).[1]

كما أنه من أسس النظرة الإسلامية للمخالف في الدين " أن المسلم ليس مكلفا أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم ، فهذا ليس إليه ، وليس موعده هذه الدنيا ، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب ، وجزاؤهم متروك إليه في يويوم الدين ، قال تعالى : " وإن جادلوك فقل : الله أعلم بما تعملون ، الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون " (الحج 68-69). وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب : " فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل أعمالكم ، لا حجة بننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير " (الشورى15) .

وبهذا يستريح ضمير المسلم ، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر ، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه ، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد .

كما أن المسلم يؤمن بأن الله يأمر بالعدل ، ويحب القسط ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولو مع المشركين ، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين ، ولو كان الظلم من مسلم لكافر . قال تعالى : " ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى "(المائدة 08). وقال صلى الله عليه وسلم : " دعوة المظلوم . وإن كان كافرا .

---

1). صحيح مسلم - ج2, ص: 1357.

ليس دونها حجاب " [1].

ومن الناس من يستند إلى بعض النصوص الدينية من الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية ، يفهمها فهما سطحيا متعجلا ، مستدلا بها على تعصب الإسلام ضد المخالفين له من اليهود و النصارى وغيرهم . كقوله تعالى :" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير " (آل عمران 28).

وقال تعالى : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا " (النساء 144) .

وقوله أيضا : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق "(الممتحنة 1).

وفي سورة المائدة : " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منه"(الآية 51-52).

و الحق أن الذي يتأمل هذه الآيات تأملا فاحصا ، ويدرس تواريخ نزولها وأسبابه وملابساته يتبين له :

- إن النهي إنما هو عن اتخاذ المخالفين أولياء بوصفهم جماعة متميزة بديانتها وعقائدها وأفكارها وشعائرها ، أي بوصفهم يودا أو نصارى أو مجوسا أو نحو ذلك ، لا بوصفهم جيرانا أو زملاء أو مواطنين .

- إن الموادة التي نهت عنها الآيات ليست هي موادة أي تحالف في الدين ، ولو كان سلما لمسلمين وذمة لهم ، إنما هي موادة من آذى المسلمين وحاد الله ورسوله .

- إن الإسلام أبا ح للمسلم التزوج من أهل الكتاب ، و الحياة الزوجية يجب أن تقوم على السكون النفسي و المودة و الرحمة ، كما دل على ذلك القرآن في قوله تعالى : " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة "(الروم 21) .

وهذا يدل على أن مودة المسلم لغير المسلم لا حرج فيها ، وكيف لا يواد الرجل

---

1) . رواه أحمد في مسنده . أنظر حول هذه الأسس الفكرية لتسامح المسلمين : يوسف القرضاوي : **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي** ، باتنة : دار الشهاب ، 51-52.

زوجته إذا كانت كتابية . وكيف لا يواد الولد جده وجدته وخاله وخالته إذا كانت أمه ذمية ؟ .

ـ إن الحقيقة التي لا شك فيها أن الإسلام يؤكد إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها ، سواء كانت رابطة نسب أو إقليم أو عنصر أو طبقة ، فالمسلم أخو المسلم ، وهو أقرب إليه من أي كافر ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه .

وهذا ليس في الإسلام وحده ، بل طبيعة كل دين ، وكل عقيدة ، ومن قرأ الإنجيل وجده يؤكد هذا المعنى في أكثر من موقف [1] .

3 ـ التساكن الديني في المجتمع الإسلامي ..قراءة في الفعل التاريخي :

لم تكن حركة الفتح الإسلامي حروبا دينية خاطفة ، تقتحم الحدود ، وتُروع الآمنين ، وتفرض دينا بالقوة على الناس في أوطانها ، بل كانت حروبا انجلى غبارها عن استقرار وتمدن ورفاه ، شعرت الشعوب المفتوحة تحت ظل السيادة الإسلامية بالحرية في معتقداتها ، والأمان في إقامة شعائرها ، وتحريرا من الزعامات الجائرة التي كبتت الأنفاس ، وصادرت الحريات قونا متطاولة من الزمن .

ثم ما لبث الفاتحون أن استوطنوا البلاد المفتوحة ، وساكنوا أهلها ، واختلطوا بهم في القُرى و المداشر و المدن ، ، ومن خلال هذا الاحتكاك الاجتماعي ، والتبادل الثقافي ، والحوار اليومي ، والنشاط الاقتصادي ..كانت (الألفة الجامعة) التي تربط المسلم ببني جنسه من البشر الآخرين .لا يحجزه دينه الحق عن التواصل مع الآخرين ، يحقق معهم فريضة التعارف التي أمر بها في الذكر الحكيم : " يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " .

وفي التاريخ الإسلامي نقرأ كيف التزم خلفاء المسلمين وقادتهم بالوفاء لأهل الأديان المختلفة ، وما نقرأه في التاريخ من تجاوز وعدوان ـ من طرف، هذا الخليفة أو ذاك ، أو هذا الأمير أو ذاك ـ إنما هو محض استثناء يشذ عن القاعدة ، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه ..

---

1) ـ يوسف القرضاوي . **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي** . مرجع سابق ، ص69-70.

وقد كان العصر النبوي مصداقا أمينا في الإحسان إلى أهل الكتاب وغيرهم ..مما هو ذائع شائع ومتاح ..وسوف أقتصر على نماذج مختصرة بدءا من عصر الخلافة الراشدة إلى ما بعده من عصور الإسلام الزاهرة .

وبرز ذلك في عقد الذمَّة الذي كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأهل الحيرة في العراق، وكانوا من النصارى, إذ جاء فيه: « أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين ، لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم الجزية فقد أتيناكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم ".[1]

يقول أبو يوسف صاحب كتاب الخراج: «وتُركت البيع والكنائس لم تُهدم لما جرى من الصلح بين المسلمين وأهل الذمَّة, ولم يردَّ ذلك الصلح على خالد أبو بكر ولا ردَّه بعد أبي بكر عمر ولا عثمان ولا عليّ رضي الله تعالى عنهم أجمعين».[2]

وفي عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل إيلياء (القدس) نصُّ على حُريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم, وجاء فيه: «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم, وكنائسهم وصلبانهم, وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها، أنَّها لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود..».[3]

لهذا وقد حاول كثير من اليهود وثلة من المؤرخين الأوروبيين تحريف الوثيقة لتكون عطاءً شاملاً للنصارى واليهود على حد سواء في مسألة الإقامة والسكنى في القدس، وهذا ـ لا ريب ـ مردود بنص المعاهدة الصريح حيث لا مجال للشك أو التحريف، فالعهدة منقولة إلينا في كتب التاريخ الموثقة فضلاً عن أنها موجودة في بطركية الروم الأرثوذكس بكنيسة القيامة في القدس الشريف، إلا إذا كان لدى اليهود

---

1). الطبري . **تاريخ** ، ط3. بيروت : دار الكتب العلمية ، 1991م ،ج 2/ص307.

2). أبو يوسف . **كتاب الخراج**. ص147.

3). الطبري . **تاريخ الطبري**. ج2/ص 449.

وثيقة أخرى نسخوها بأيديهم ، ثم قالوا: هذا من عند عمر مثلما حرفوا التوراة ثم قالوا: هذا من عند الله" فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون."

وقد ذكر الإمام ابن القيم الشروط العمرية في كتابه أحكام أهل الذمة، وعزاها لعدد من المصادر : أولها مسند الإمام أحمد، فقد روى ابنه عبد الله في زوائده على المسند، فقال: حدثني أبو شرحبيل الحمصي حدثني (عمي) أبو اليمان وأبو المغيرة قالا: أخبرنا إسماعيل بن عياش قال: حدثنا غير واحدٍ من أهل العلم قالوا :كتب أهل الجزيرة إلى عبد الرحمن بن غنم: "إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا، وأهل ملتنا على أنا شرطنا لك على أنفسنا: ألا نحدث في مدينتنا كنيسة، ولا فيما حولها ديراً، ولا قلاّية (بناء كالدير)، ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً، وألا نكتم غشا للمسلمين، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليباً، ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون، وألا نخرج صليبا ولا كتاباً في سوق المسلمين، وألا نخرج باعوثاً - والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر- ولا شعانين (عيد للنصارى)، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير، ولا نبيع الخمور، ولا نظهر شركاً، ولا نرغِّب في ديننا، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين، وألا نمنع أحداً من أقربائنا أراد الدخول في الإسلام، وأن نلزم زينا حيثما كنا، وألا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتني بكناهم، وأن نجزَّ مقادم رؤوسنا، ولا نفرق نواصينا، ونشدُّ الزنانير على أوساطنا، ولا ننقش خواتمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئا من السلاح ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس، ولا نطلع عليهم في مجالسهم، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا يشارك أحد منا في تجارة إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة، وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة

أيامٍ، ونطعمه من أوسط ما نجد. ضَمِنَّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإن نحن غيّرنا أو خالفنا عمّا شرطنا على أنفسنا، وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا، وقد حل لك منا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق[1].

ومن المستشرقين المؤرخين من يشكك في نسبة الشروط أو الأوامر المتعلقة بالزي إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب؛ لأن كتب المؤرخين الأقدمين الموثوق بها، والتي عنيت بمثل هذه الأمور لم تشتمل عليها (كتب الطبري، والبلاذري، وابن الأثير، واليعقوبي... وغيرهم)، و(الشروط العمرية) التي تنسب إلى عمر بن الخطاب، والتي شرحها ابن القيم في جزأين لم تثبت نسبتها إلى عمر بسند صحيح، وهذا ما اعترف به ابن القيم وغيره، ولكنه ادعى أن شهرتها تُغني عن ثبوت سندها. وهو ما لا نسّلمه، فكم من أمور تشتهر بين الناس -حتى بين أهل العلم منهم- ويتناقلها بعضهم عن بعض، وهي في الحقيقة لا أصل لها. فالمدار في إثبات النقول على صحة السند، وسلامته من الشذوذ والعلة.

على أن الأمر أهون من أن يتكلف إنكاره ورده، لو عرفت دواعيه وأسبابه، وعرفت الملابسات التاريخية التي وجد فيها.

فهو ليس أمرًا دينيًا يتعبد به في كل زمان ومكان كما فهم ذلك جماعة من الفقهاء، وظنوه شرعا لازما، وهو -إن صح- ليس أكثر من قرار إداري أو أمر من أوامر السلطة الشرعية الحاكمة يتعلق بمصلحة زمنية للمجتمع آنذاك، ولا مانع من أن تتغير هذه المصلحة في زمن آخر، وحال أخرى، فيُلغى هذا الأمر أو يُعدل.

لقد كان التمييز بين الناس تبعا لأديانهم أمرًا ضروريًا في ذلك الوقت، وكان أهل الأديان أنفسهم حريصين عليه، ولم يكن هناك وسيلة للتمييز غير الزي؛ حيث لم يكن لديهم نظام (الهويات) أو البطاقات الشخصية المعروف في عصرنا، التي يسجل فيها - مع اسم الشخص ولقبه - دينه وحتى مذهبه في بعض البلدان، فالحاجة إلى التمييز وحدها هي التي دفعت إلى إصدار تلك الأوامر والقرارات .ولهذا لا نرى في عصرنا

---

1) - ابن القيم الجوزية . أحكام أهل الذمة . ج2/ص114-115، ابن تيمية . الجهاد ج2/ص223.

أحدا من فقهاء المسلمين، يرى ما رآه الأولون من طلب التمييز في الزي لعدم الحاجة إليه[1].

وقد علق الدكتور (ا.س.ترتون) مؤلف كتاب (أهل الذمة في الإسلام)على هذا العهد بقوله :

"...في هذا العهد نلاحظ نقاطا بالغة الغرابة ، وذلك أنه لم تجر العادة أن يشترط المغلوبون الشروط التي يرتضونها ليوادعهم الغالب.

أضف إلى هذا أنه من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول القرآن هم وأولادهم بأية صورة من الصور ، ومع ذلك يقتبسون منه في خطابهم للخليفة في قولهم ـ أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . والأمر المستغرب من الوجهة العامة أنه عهد لم ينص فيه على اسم بلد . فلو كان صادرا عن دمشق ـ قصبة الولاية ـ لوردت الإشارة إليها " .

ثم قال : " ومن ناحية أخرى فإننا لا نجد قط عهدا مع أية مدينة من مدن الشام يشبه عهد " عمر " هذا بحال من الأحوال إذ كلها عهود بالغة البساطة " .

ثم قال : " ..إذا تبين لنا هذا ساورنا الشك في نسبة العهد إلى عمر .." [2].

ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن وعسكر أبو عبيدة في (فحل) ، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب يقولون : " يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا " ، وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولا يتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم " [3].

والواقع التاريخي يثبت بجلاء لا يحتمل الشك، أن القادة الفاتحين المسلمين لم

---

1) ـ يوسف القرضاوي . غير المسلمين في المجتمع الإسلامي . مرجع سابق . ص62-63

2) ـ محمد الغزالي . التعصب و التسامح بين المسيحية و الإسلام . ط5، القاهرة : نهضة مصر ، 2004م ، ص45-46.

3) ـ توماس أرنولد . الدعوة إلى الإسلام . ترجمه: حسن إبراهيم حسن, وعبدالمجيد عابدين, وإسماعيل النحراوي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية, (1970م). ص73

يأخذوا الجزية من أهل البلاد المفتوحة إلا على مبدإ الحماية وتوفير الأمن ، وقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص، وأبو عبيدة على أهل دمشق، وبقية القواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن: "إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم فهذه هي أموالكم نردها إليكم".

وكتب عمرو بن العاص رضي الله عنه والي عمر بمصر لأهل مصر عهدًا جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم, هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شيءٌ في ذلك ولا يُنتقص».[1]

ويعلق (توماس أرنولد) على دخول الإسلام إلى مصر وكيف تعامل الفاتحون المسلمون مع الأقباط المسيحيين فيقول : " جلب الفتح الإسلامي إلى الأقباط في مصر حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان . وقد تركهم عمرو أحرارًا على أن يدفعوا الجزية ، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، وخلصهم بذلك من التدخل المستمر الذي أنّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني ..وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتداد الأقباط عن دينهم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حُكامهم الحديثين . بل لقد تحوّل كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح ، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين ، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة" [2] .

وحينما فتح المسلمون بلادًا أخرى في شرق الأرض وغربها, سلكوا مع أهلها مسلك التسامُح, بل عقدوا معهم معاهدات ضمنت لهم حرية بقائهم في بلادهم بما يدينون به, ودون المساس ببيوت عباداتهم, وهي عهود مع أهل الذمة كثيرة تغصُّ بها

---

1) . الطبري . **تاريخ** .ج2/ص 514-515.

2) . أرنولد . **الدعوة إلى الإسلام** . ص123-124.

صفحات التاريخ.

وقد ورد في جميع العهود لفظ (أهل الذمة) و الذي أصبحت كثير من الأقليات غير المسلمة تتأذى منه ، وتراه مصطلحا يضعها في الدرجة الثانية من درجات المواطنة ، مع أن مدلول هذا المصطلح مدلول إيجابي ، لأنه يعني : أن لهم ذمة الله ورسوله وجماعة المسلمين ، وهذا مدلول له وقعه وتأثيره في نفس المسلم ، فإنه لا يقبل أن تُخفر ذمة الله ورسوله بحال ، ومن فعل ذلك فعليه لعنة الله و الملائكة والناس أجمعين .

ويرى بعض الفقهاء المعاصرين [1] " أن لا مانع من استخدام كلمة (المواطنة) و(المواطن) بدل من أهل الذمة ، فإن أهل الذمة من أهل دار الإسلام ، فهم من أهل الدار ، وإن لم يكونوا من أهل الملة ، و(أهل الدار) تعني بالتعبير العصري : مواطنين.

وحذف هذه الكلمة لا يتعارض مع شيء منم أحكام شريعتنا ، أو مقررات ديننا .

ولنا أسوة في ذلك من عمل الخلفاء الراشدين الذين أمرنا أن نستن بسنتهم، وأن نعض عليها بالنواجذ ، ولا سيما سنة الشيخين أبي بكر وعمر .

أسوتنا ما صنعه الفاروق عمر . ووافقه الصحابة رضي الله عنهم . مع عرب بني تغلب ، وكانوا نصارى منذ عصر الجاهلية ، وقد طلبوا إلى عمر أن يأخذ ما يأخذه باسم الجزية ، وقالوا : إننا قوم عرب ، ونأنف من كلمة جزية .

تردد عمر في أول الأمر أن يجيبهم إلى طلبهم ، ، ثم نصحه بعض مشيريه أن يستجيب لهم ، قائلا : إنهم قوم لهم بأس وقوة ، ونخشى أن يلحقوا بالروم ، ففكر عمر في الأمر ، ورأى أن ينفذ لهم ما أرادوا ، وقال : سموها ما شئتم ، وقال لمن حوله : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا المعنى وأبو الاسم !.

وكان هذا من الفاروق تقريرا لقاعدة مهمة : أن العبرة ليست للأسماء و العناوين، ولكن العبرة للمسميات و المضامين .

هذا مع أن كلمة جزية ذكرت في القرآن ، ولكن المقصود هو معناها لا لفظها ، ومعناها : أن يدفعوا ضريبة يعلنون بها إذعانهم لسلطان الدولة المسلمة ، وقبولهم

---

1) . يوسف القرضاوي . **خطابنا الإسلامي في عصر العولمة** . ط1، القاهرة : دار الشروق ، 2004م ، ص46-47.

جريان أحكام الإسلام ـ غير الدينية ـ عليهم "[1].

ومن عصر الدولة العباسية تصلنا وثيقة تدل على صورة واضحة من صور الحرية الدينية في عصر المأمون (170-218هـ /786-833م)، وهي في صورة رسالة كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم المحتد ، عظيم المنزلة في بلاط الخلافة ، وفي الرسالة لهجة تنم عن الوُدّ، وفيها لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر ...

وفي مطلع القرن الثالث الهجري ، عقد في مدينة(مرو) ـ من أكبر مدن خراسان ـ حوار بين الأديان ، من غير مجاملات أو مداهنات ، جمع هذا الحوار الجاثليق كبير النصارى ، ورأس الجالوت زعيم اليهود ، والهربذ الأكبر ممثل الزرادشتية ، وعمران الصابي قطب الصابئة ، والفيلسوف قسطاس الرومي ، وجمع من المتكلمين[2] .

وما كان لمثل هذه الحوار أن يتم في أرجاء المملكة الإسلامية لولا روح من التسامح تسري بين المسلمين ، وتوفر الأمان لغير المسلمين فيعبروا عن عقيدتهم ، ويحشدون الأدلة و الحجج و البراهين لإثبات صحتها ، وهذا ما لم تعرفه الأديان في ظل أي حضارة من الحضارات عبر التاريخ .

حول هذا التسامح يسجّل الرحالة ناصر خسرو شهادته وهو يزور بيت المقدس, ويصف كنيسة بيعة القيامة, فيقول: «وللنصارى في بيت المقدس كنيسة يسمّونها (بيعة القيامة), لها عندهم مكانة عظيمة. ويحجُّ إليها كلَّ سنة كثيرٌ من بلاد الروم, ويزورها ملك الروم متخفيًا, حتى لا يعرفه النَّاس. وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله,

---

1) . يرى الشيخ القرضاوي في كتابه فقه الزكاة (ج1/ص112/117) أن لولي الأمر في الدولة الإسلامية أن يأخذ من غير المسلمين ضريبة تساوي فريضة الزكاة ، ولنُسميها (ضريبة التكافل) توحيدا للميزانية والإجراءات بين أبناء الوطن الواحد و الدار الواحدة ، وأبدت ذلك بأدلة شرعية من داخل الفقه الإسلامي. وقد وجدنا في كتب الفقه المالكي أ حكام الجزية لأهل الذمة موضوعة في صلب أحكام الزكاة للمسلمين ،أنظر على سبيل المثال : الرسالة لابن أبي زيد مع شرحيها لابن ناجي وزروقج1/ص331وما بعدها . حيث وضعت الجزية في صلب أبواب الزكاة .

2) . شوقي أبو خليل . **الإسلام و التعايش و التفاهم بين الشعوب** . ط1، دمشق : دار الفكر ، 1997م ، ص75-76.

فبلغ ذلك الحاكم, فأرسل إليه أحد حرّاسه ـ بعد أن عرّفه أنّ رجلاً بهذه الحلية والصورة يجلس في كنيسة بيت المقدس ـ وقال له: (اذهب عنده وقل له: إنّ الحاكم أرسلني إليك ويقول: لا تحسبنّي أجهل أمرك, ولكن كن آمنًا فلن أقصدك بسوء)». [1]

وكلّ ما يطلبه الإسلام من غير المسلمين أن يراعوا مشاعر المسلمين، وحُرمة دينهم، فلا يظهروا شعائرهم وصلبانهم في الأمصار الإسلامية، ولا يحدثوا كنيسة في مدينة إسلامية, لم يكن لهم فيها كنيسة من قبل، وذلك لما في الإظهار والإحداث من تحدّي الشعور الإسلامي, ممّا قد يؤدّي إلى فتنة واضطراب.

على أنّ من فقهاء المسلمين مَن أجاز لأهل الذمّة إنشاء الكنائس والبِيَع وغيرها من المعابد في الأمصار الإسلامية، وفي البلاد التي فتحها المسلمون عنوة، أي أنّ أهلها حاربوا المسلمين, ولم يسلموا لهم إلا بحد السيف, إذا أذن لهم إمام المسلمين بذلك، بناء على مصلحة رآها، ما دام الإسلام يقرُّهم على عقائدهم.

وقد ذهب إلى ذلك الزيدية و الإمام ابن القاسم من أصحاب مالك ([2]).

ويبدو أن العمل جرى على هذا في تاريخ المسلمين، وذلك منذ عهد مبكر، فقد بُنِيت في مصر عدّة كنائس في القرن الأول الهجري، مثل كنيسة «مار مرقص» بالإسكندرية ما بين (39 ـ 56 هـ/659 ـ 675م) .كما بُنِيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم، في ولاية مسلمة بن مخلد على مصر بين عامي (47 ـ 68 هـ/ 667 ـ 687م) كما سمح عبد العزيز بن مروان, حين أنشأ مدينة «حلوان» ببناء كنيسة فيها، وسمح كذلك لبعض الأساقفة ببناء دَيرين.

وقد ذكر المؤرّخ المقريزي في كتابه: تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريزي للعلاّمة المقريزي أمثلة عديدة من هذا النوع من التعامل، ثم ختم حديثه بقوله: «لكن الذي نريد أن نقرّره من واقع المصادر, ومن واقع حوليات الكنيسة القبطيّة, ومن الوثائق .. أنّ الغالبيّة من الكنائس, وبيوت العبادة لأهل الذمّة في مصر بُنيت في العصر

---

1) . خسرو. ناصر علوي خسرو القبادياني (ت 481 هـ / 1088م). **سفر نامه**: رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري. ط 3. نقلها إلى العربية: يحيى الخشّاب. بيروت: دار الكتاب الجديد, 1983م. ص74 - 75.

2) . يوسف القرضاوي . **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي** . مرجع سابق ، ص20.

الإسلامي, ومنذ خلافة عمر بن الخطاب, وفي ظل التسامح الإسلامي».[1]

وفي العصر الفاطمي في مصر نقرأ أن الحاكم بأمر الله أصدر أوامر لأهل الذمة تضمنت : منع النصارى من تقديم النبيذ في قرابينهم ، على أن يقدموا بدلا منه ماء قد نقع فيه زبيبا أو عود الكرم، ثم أمر النصارى بألا يظهروا صليبا أو يدقوا ناقوسا ، ونزعت الصلبان و النواقيس، كما أمر أن تمحى الصلبان المرسومة على أيدي الناس وعلى سواعدهم ، كما منع سفر الأساقفة المصريين إلى النوبة و الحبشة أو حتى مكاتبة ملوكها، وتبالغ المصادر النصرانية فيما ذكرته من تصرفات الخليفة الحاكم ، وأنه قام بتعذيب النصارى بقصد تحويلهم إلى الإسلام ، وهذه الكتب كان قصدها أن تظهر الأقباط بمظهر الشهداء ، لكن ما ينفي عن الحاكم قصده تحويلهم إلى الإسلام ، هو بقاء القبط في دواوينه وقصره محتفظين بديانتهم ويمنحون الألقاب مثل المسلمين[2].

ومع ذلك فقد رجع الحاكم في آخر سني حكمه عن هذه السياسة الشديدة تجاه أهل الذمة ، كما سمح لكل الذين اعتنقوا الإسلام مضطرين بالعودة إلى دينهم على أن يلتزموا بلبس الغيار ، فأصدر سجلا في عام 411هـ /10701م ، يطمئن فيه أهل الذمة بحمايته لهم ما داموا ملتزمين بأوامره ، وهذا الأمان أطلق لأهل الذمة حرية الشعائر ، كما منحهم عهدا جديدا كفل لهم فيه الأمان و الحرية وهذا نصه : " هذا كتاب عبد الله ووليه المنصور أبي علي ، الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، ابن الإمام العزيز بالله ،لجماعة النصارى بمصر ، عندما أنهو إليه الخوف الذي لحقهم ، والجزع الذي هالهم فأقلقهم ...بما رآه وأمر به من تكميل النعمة عليه بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفو عليهم

---

1) . المقريزي. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (845هـ/ 1441م). ـ **تاريخ الأقباط المعروف بالقول الإبريز** للعلاَّمة المقريزي. ـ وقد استلَّه مينا إسكندَّر من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف ب (**خطط المقريزي**) وسمَّاه بهذا الاسم. دراسة وتحقيق: عبد المجيد دياب. القاهرة: دار الفضيلة, (1998م). ص44.

2) . نريمان عبد الكريم أحمد . **معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية** . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996م ، ص97-98.

ملابس السكون و الدعة واجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، وبتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ، فأنتم جميعا آمنون بأمان الله عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين وأمان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سلام الله عليه ...هذا على نفُوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم وأحوالكم وأملاككم وما تحويه أيديكم ، أمانا صريحا ثابتا ، وعقدا صحيحا باقيا فثقوا به واسكنوا إليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأي أمير المؤمنين وعاطفته ، ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول إليكم بحضرة يد إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه ، وعظيم إنكاره مضيقا فيه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعقدونه من صلاح وإصلاح لسكان أقطار مملكته ، ومدنه وسيلة الثواء في كنف دولته وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم، وعهده الذي يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيدا وليقرر في أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم إن شاء الله "[1].

وهذا التراجع ينم عن شخصية الحاكم بأمر الله المتقلبة ونزواته الكثيرة ، حتى أن بعض المؤرخين اعتبروا رجوع الحاكم عن شدته مع أهل الذمة دليلا على خروجه عن الإسلام لسماحه لمن أسلم من أهل الذمة بالارتداد ، فقد ارتد سبعة آلاف من اليهود في يوم واحد إلى دينهم [2].

وممَّا يشاد به ضمن هذا التسامُح هو شهادة للرحّالة الأندلسي ابن جبير متعجبًا من حسن التعامُل بين المسلمين والصليبيين, رغم ضراوة الحروب بينهم, فيقول: «ومن عجيب ما يُحدَّث به أنَّ نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين المسلمين والنصارى, وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم ... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكَّة كذلك, وتجّار النصارى أيضًا لا يُمنع

---

1) . يحيى بن سعيد الأنطاكي . **صلة تاريخ أوتيخا المسمى التاريخ المجموع على التحقيق و التصديق** ، تحقيق شيخو ، بيروت :1909م ،ص232 نقلا عن نريمان عبد الكريم أحمد . **معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية**، مرجع سابق ، ص99-100.

2) . المصدر نفسه .

أحد منهم ولا يُعتَرض, وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدُّونها في بلادهم, وهي من الأمنة على غاية. وتجّار النصارى أيضًا يؤدُّون في بلاد المسلمين على سلعهم, والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشغولون بحربهم, والنَّاس في عافية».[1]

ـ وعن حسن تعامُل المسلمين وتسامحهم مع غيرهم إبَّان الحروب الصليبيَّة ما سجَّله التاريخ في تسامُح صلاح الدين الأيوبي, بعد أن استردَّ بيت المقدس سنة 583هـ /1187م, حيث وفَّى للنصارى بعهودهم, وسَمِح لمن أراد الخروج منهم بالخروج, وبقيت كنائسهم علىَ ما هي عليه, سوى ما أخذوه من مساجد المسلمين, وقد خرج كثيرٌ من كبرائهم بأموالهم, وبذل بعض المسلمين من أموالهم فدية عن النصارى ليتمكَّنوا من الخروج, وكان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ رحيمًا بالضعفاء والأرامل وأعزّة القوم, ويشيد المؤرّخ ابن واصل بهذا التسامُح بقوله: «كان في القدس بعض نساء ملك الروم, وقد ترهَّبت وأقامت به, ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير, ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم, فطلبت الأمان لنفسها ومن معها, فأمَّنها وسيَّرها».[2]

وقد كان المسلمون في عصورهم الأولى لا يرضون باستخدام اليهود و النصارى في شؤون الدولة ، فقد روي أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كبير حافظ من الحيرة ، وكان نصرانيا ، فقيل له ، لو اتخذته كاتبا"؟فقال:" لقد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين"[3].

ولكن ذلك لم يدم طويلا فاستُخدموا في الأعمال من عهد معاويةُ رضي الله عنه ، ثم في العصور التالية ، حتى في المناصب العليا ، فزاد سلطانهم ، ووُلي بعضهم ديوان الجيش ، وكان المسلمون يقبلون يده ، وهذا ما ذكره الصابي في قوله : " إن علي بن عيسى قال لابن الفرات : ما اتقيت الله في تقليدك ديوان جيش المسلمين

---

1) . ابن جبير. **رحلة ابن جبير**. بيروت: دار صادر،1400هـ (1980م). ص260.

2). ابن واصل. **مفروج الكروب في أخبار بني أيوب**. تحقيق: جمال الدين الشيال. القاهرة, (1953م). ج2 ص:216.

3) . ابن قتيبة . **عيون الأخبار** . ج1/ص43.

رجلا نصرانيا ن وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره ؟ !، فقال له ابن الفرات : ما هذا شيء ابتدأته ولا ابتدعته ، وقد كان الناصر لدين الله قلّد الجيش إسرائيل النصراني كاتبه ، وقلّد المعتضد ملك بن الوليد النصراني كاتب بدر !، فقال علي بن عيسى ، ما فعلا صوابا ، فقال ابن الفرات : حسبي الأسوة بهما وإن أخطأ على زعمك " [1].

وتتكرَّر الصورة حينما فتح السلطان العثماني محمَّد الفاتح القسطنطينية سنة 857 هـ (1453م), وقد أعلن حرية إقامة الشعائر الدينية للنصارى, وحفظ أملاكهم, وأنَّ لهم اختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حقّ الحكم في قضاياهم المدنية, كما أعطى الحقّ لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى, بعد أن فرض الجزية على الجميع.[2]

ويؤكِّد حسين مؤنس في كتابه: عالم الإسلام أن الذين بقوا على دياناتهم في المجتمعات الإسلامية شملهم تسامح الإسلام, وواصلوا حياتهم داخل الجماعة الإسلامية باعتبار أنهم أهل ذمَّة أي يعيشون في رعاية هذه الجماعة مع أداء الجزية لقاء ما تمتعوا به من حقوق المواطنة والحماية التي أضفاها عليهم الإسلام, والأمان الذي نعموا به في ظله, وفي مقابل إعفائهم من الواجبات الحربية للدفاع عن أرض الإسلام.[3]

ثمَّ يعزو مؤنس إلى شهادة وثائق الجنِّيزة وتوكيدها أنَّ اليهود في البلاد العربية والإسلامية كانوا يعيشون في تسامحٍ تامٍّ حتى وصلوا إلى مكانة طيِّبة من الغنى والجاه, وشغلوا الوظائف الرئيسيَّة في كثيرٍ من البلاد الإسلامية. وأن اليهود لم يصلوا إلى مثل هذا الوضع في أيِّ مجتمعٍ غير المجتمع الإسلامي.[4]

وهذا التسامُح مع المخالفين في الدين من قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتمَّ لهم به النصر والغلبة، أمر لم يُعهد في تاريخ الديانات، وهذا ما شهد به الغربيون

---

1) . الوزراء . ص95.

2) . محمَّد فريد بك المحامي. تاريخ الدولة العلية العثمانية. تحقيق: إحسان حقّي. ط1. بيروت: دار النفائس, 1401هـ (1981م). ص 165.

3) . حسين مؤنس. عالم الإسلام. ص149 - 150.

4) . المرجع نفسه ص: 151 -152.

أنفسهم. حيث بلغ من تسامُح المسلمين مع أهل الذمَّة أن حافظوا على كنائس النصارى في بعض ديار المسلمين, ولم يمسّوها بسوء, يشهد بذلك البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث (Isho Yaph) في رسالة بعث بها إلى سمعان مطران ريفاردشير ورئيس أساقفة فارس يقول فيها: «... وإنَّ العرب الذين منحهم الله سلطان الدنيا, يشاهدون ما أنتم عليه, وهم بينكم, كما تعلمون ذلك حقّ العلم, ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحيَّة, بل على العكس, يعطفون على ديننا ويكرمون قُسسنا وقدِّيسي الرَّب, ويجودون بالفضل على الكنائس والأديار».[1]

وينقل لوبون عن روبرتسون في كتابه: تاريخ شارلكن قوله: «إنَّ المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامُح نحو أتباع الأديان الأخرى، وإنَّهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسّك بتعاليمهم الدينية».[2]

كما ينقل لوبون عن ميشود في كتابه: تاريخ الحروب الصليبيَّة قوله: «إنَّ القرْآن الذي أمر بالجهاد مُتسامح نحو أتباع الأديان الأخرى, وقد أُعفى البطاركة والرهبان وخدمهم من الضرائب, وحرَّم محمَّد قتل الرهبان لعكوفهم على العبادات, ولم يمسّ عمر بن الخطاب النصارى بسوء حين فتح القدس».[3]

ويضيف لوبون قوله: «لم تقلَّ براعة الخلفاء الأوَّلين السياسية عن براعتهم الحربية التي اكتسبوها على عَجَلٍ, وذلك أنَّهم اتصلوا منذ الوقائع الأولى بسكان البلاد المجاورة الأصليين الذين كان يبغي عليهم قاهروهم منذ قرون كثيرة, والذين كانوا مستعدِّين لأن يستقبلوا بترحابٍ وحُبُور أي فاتح يُخفِّف وطأة الحياة عنهم, وكانت الطريق التي يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة, فعرفوا كيف يُحجمون عن حمل أحدٍ بالقوة على ترك دينه, وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يُسلم,

---

1). توماس. و. آرنولد. **الدعوة إلى الإسلام**. ـ ص: 102.

2) ـ روبرتسون. **تاريخ شارلكن**. نقلاً عن غوستاف لوبون. **حضارة العرب**. ص **128**. هامش (1).

3) ـ ميشود. **تاريخ الحروب الصليبيَّة**. نقلاً عن غوستاف لوبون. **حضارة العرب**. ص **128**. هامش (1).

وأعلنوا في كلّ مكان أنّهم يحترمون عقائد الشعوب وعُرفها وعاداتها, مكتفين بأخذهم, في مقابل حمايتها, جزيةً زهيدةً تقلُّ عما كانت تدفعه إلى ساداتها السابقين من الضرائب».[1]

ويؤكِّد لوبون أنَّ التاريخ أثبت أنَّ الأديان لا تفرض بالقوة, ذلك أنَّه لمَّا قهر النصارى عربَ الأندلس فضَّل هؤلاء القتلَ والطردَ عن آخرهم على ترك الإسلام.[2]

ويسجِّل المؤرِّخ الأمريكي لوثروب ستودارد شهادته في ذلك بقوله: «وكان الخليفة عمر يرعى حرمة الأماكن المقدسة النصرانية أيما رعاية, وقد سار خلفاؤه من بعده على آثاره, فلا ضيّقوا على النصارى, ولا نالوا بمساءة طوائف الحجاج [النصارى] الوافدين كلّ عام إلى بيت المقدس من كلِّ فجٍّ من أفجاج العالم النصراني».[3]

ويؤكّدُ ذلك المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد في كتابه: الدعوة إلى الإسلام, إذ يقول: «ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبَّرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام, أو عن أي اضطهاد منظَّم قُصِد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطَّتين لاكتسحوا المسيحيَّة بتلك السهولة التي أقصى به فرديناند Ferdinand وإيزابلا Isabella دين الإسلام من أسبانيا. أو التي جعل بها لويس الرابع عشر Louis XIV المذهب البروتستنتي مذهبًا يُعاقَب عليه متّبعوه في فرنسا, أو بتلك السهولة التي ظلَّ بها اليهود مُبعَدين في إنجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامًّا عن سائر العالم المسيحي, الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحدٌ يقف في جانبهم باعتبارهم طوائفَ خارجة عن الدين. ولهذا فإنَّ مجرَّد بقاء هذه الكنائس حتَّى الآن ليحمل في طيَّاته الدليل القوى على ما قامت به سياسة الحكومات الإسلاميَّة بوجه عام من تسامُح

---

1) . لوبون. **حضارة العرب**. ص 134.

2) . المرجع نفسه ص128.

3) . لوثروب ستودارد. **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة: عجَّاج نويهض. ط 4. بيروت: دار الفكر, 1394هـ (1973م). ص: 13.14.

نحوهم».[1]

ويضيف توماس آرنولد في موضع آخر, وعن الدولة العثمانية قوله: «وكان يكون من الغريب حقًا لو أنَّ الغيرة التي دفعت العثمانيين في ذلك الحين إلى هداية الناس واستمالتهم للإسلام لم تحملهم قطّ على مجاوزة حدود التسامُح الذي رسمته قوانينهم الخاصّة بهم. ومع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر بينهم اثنين وعشرين عامًا: (إنَّ الأتراك لم يرغموا أحدًا على ترك دينه)».[2]

وينقل أيضًا صالح العايد مرة أخرى عن المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري في كتابها: دفاع عن الإسلام قولها: «مُنحت تلك الشعوب حرّية الاحتفاظ بأديانها القديمة وتقاليدها القديمة، شرط أن يدفع الذين لا يرضون الإسلام دينًا ضريبةً عادلة إلى الحكومة, تُعرف ب (الجزية), لقد كانت هذه الضريبة أخفَّ من الضرائب التي كان المسلمون مُلزمين بدفعها إلى حكوماتهم نفسها, ومقابل ذلك مُنح أولئك الرعايا المعروفون ب (أهل الذمَّة) حمايةً لا تختلف في شيء عن تلك التي تمتعت بها الجماعة الإسلاميَّة نفسها, ولمَّا كانت أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين قد أصبحت فيما بعد قانونًا يتَّبعه المسلمون, فليس من الغلو أن نُصِرَّ على أنَّ الإسلام لم يكتف بالدعوة إلى التسامُح الديني, بل تجاوز ذلك ليجعل التسامُح جزءًا من شريعته الدينية».[3]

وفي هذا يقول ريتشارد ستيبز عن الأتراك: إنهم «سمحوا للنصارى جميعًا: الإغريق منهم واللاتين, أن يعيشوا محافظين على دينهم,وأن يصرّفوا ضمائرهم كيف شاءوا, بأن منحوهم كنائسهم؛ لأداء شعائرهم المقدّسة في القسطنينيّة, وفي أماكن أخرى كثيرة جدًا, على حين أستطيع أن أؤكّد بحقّ ـ بدليل اثني عشر عامًا قضيتُها في إسبانيا ـ أنّنا لا نُرغَمُ على مشاهدة حفلاتهم البابويّة فحسب, بل إنّنا في خطر على

---

1) . آرنولد. **الدعوة إلى الإسلام**. ص98 99.

2) . المرجع نفسه ص: 183 ـ 184.

3) . لورا فيشيا فاغليري. **دفاع عن الإسلام**. نقلاً عن: صالح العايد. **حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام**. ص37- 38.

حياتنا وأحفادنا».[1]

كما أضاف غوستاف لوبون قوله: «وكان العدلُ بين الرعية دستور العرب السياسيّ, وترك العرب الناس أحرارًا في أمور دينهم, وأظلَّ العرب أساقفة الروم ومطرانه اللاتين بحمايتهم, فنال هؤلاء مالم يعرفوه سابقًا من الدعة والطمأنينة».[2]

كما سَمَحَ الإسلام لغير المسلمين بإقامة حياتهم الاجتماعية وأحوالهم الشخصية على تشريعات دياناتهم دونما تدخُّل فيها, كما في الزواج والطلاق وأكل لحم الخنزير وشرب الخمر. فالإسلام يقرُّهم على ما يعتقدون حلَّه، ولا يتعرض لهم في ذلك بإبطال ولا عتاب. فالمجوسي الذي يتزوَّج إحدى محارمه، واليهودي الذي يتزوَّج بنت أخيه، والنصراني الذي يأكل لحم الخنزير ويشرب الخمر، لا يتدخَّل الإسلام في شؤونهم هذه, ما داموا يعتقدون حلَّها، فقد أُمر المسلمون أن يتركوهم وما يدينون.

فإذا رضوا بالاحتكام إلى شرع المسلمين في هذه الأمور فيحكم فيهم بحكم الإسلام, لقوله تعالى: { وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ }. [سورة المائدة: 49].

ويرى بعض الفقهاء أننا مخيَّرون إذا احتكموا إلينا: إما أن نحكم بشرعنا, أو نترك فلا نحكم بشيء؛ لقوله تعالى: { فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }. [سورة المائدة: 42].[3]

ومن هنا كان لأهل الذمَّة محاكمهم الخاصَّة، يحتكمون إليها إن شاءوا، وإلا لجأووا إلى القضاء الإسلامي. يقول المؤرّخ الغربي آدم متز في كتابه: الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجري: «ولما كان الشرع الإسلاميّ خاصًا بالمسلمين فقد خلّت الدولة الإسلاميَّة بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم. والذي نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية، وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا، وقد كتبوا كثيرًا من كتب القانون، ولم تقتصر

---

1) . يوسف القرضاوي. **الأقليات الدينيّة والحل الإسلامي**. ص 57.56.

2) . غوستاف لوبون. حضارة العرب. ص152.

3) . يوسف القرضاوي. **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**.مرجع سابق ص 39 .40.

أحكامهم على مسائل الزواج، بل كانت تشمل, إلى جانب ذلك, مسائل الميراث وأكثر المنازعات التي تخصُّ المسيحيين وحدهم ممَّا لا شأن للدولة به. على أنه كان يجوز للذمي أن يلجأ إلى المحاكم الإسلاميَّة. ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا. ولذلك ألف الجاثليق تيموتيوس (Timotheus) حوالي عام 200 هـ (800 م) كتابًا في الأحكام القضائية المسيحيَّة «لكي يقطع كل عذرٍ يتعلَّل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحيَّة».[1] إلى أن يقول: «وفي عام 120هـ (738م) وَلِي قضاء مصر خير بن نعيم، فكان يقضي في المسجِد بين المسلمين, ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج, فيقضي بين النصارى. ثم خصَّص القضاة للنصارى يومًا يحضرون فيه إلى منازل القضاء ليحكموا بينهم, حتَّى جاء القاضي محمَّد بن مسروق الذي وَلِي قضاء مصر عام177هـ (793م), فكان أول من أدخل النصارى في المسجد ليحكم بينهم».[2] ثم قال متز: «أما في الأندلس، فعندنا من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون في خصوماتهم بأنفسهم، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضي إلا في مسائل القتل, فكانوا يقدِّمون المتهم إليه ويعرضون أدلتهم».[3]

وفيما عدا ذلك يلزمهم أن يتقيَّدوا بأحكام الشريعة الإسلاميَّة في الدماء والأموال والأعراض ـ أي في النواحي المدنية والجنائية ونحوها ـ شأنهم في ذلك شأن المسلمين، وفي هذا يقول الفقهاء: لهم ما لنا وعليهم ما علينا ـ أي في الجملة, لا في التفصيلات. فمن سرق من أهل الذمَّة أُقيم عليه حد السرقة، كما يُقام على المسلم، ومن قتل نفسًا أو قطع طريقًا، أو تعدى على مال، أو زنى بامرأة،أو رمى محصنة، أو غير ذلك من الجرائم أُخذ بها، وعوقب بما يعاقب به المسلم، لأن هذه الأمور مُحرَّمة في ديننا، وقد التزموا حكم الإسلام فيما لا يخالف دينهم.

---

1). آدم متز. **الحضارة الإسلاميَّة في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام**. ط 4. نقله إلى العربية: محمَّد عبد الهادي أبو ريده. ـ القاهرة: مكتبة الخانجي, بيروت: دار الكتاب العربي, 1387هـ (1967م). ج1, ص: 93.

2). المرجع نفسه . ص 94.

3). المرجع نفسه . ص: 95.

ويضيف الأمير شكيب أرسلان في زياداته على كتاب حاضر العالم الإسلاميّ للوثروب ستودارد, نقلاً عن أحد وزراء الدولة العثمانية قوله: «إننا نحن المسلمين من ترك وعرب وفرس وغيرهم مهما بلغ بنا التعصُّبُ في الدين, فلا يصل بنا إلى درجة استئصال شأفة أعدائنا ولو كنّا قادرين على استئصالهم. ولقد مرّت بنا قرون وأدوار كنّا قادرين فيها على أن لا نبقي بين أظهرنا إلا من أقرَّ بالشهادتين, وأن نجعل بلداننا كلها صافية للإسلام. فما هجس في ضمائرنا خاطر كهذا الخاطر أصلاً, وكان إذا خطر هذا ببال أحد من ملوكنا كما وقع للسلطان سليم الأول العثماني تقوم في وجهه الملَّة, ويحاجُّه مثل زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام, ويقول له بلا محاباة: ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية, وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم. فيرجع السلطان عن عزمه, امتثالاً للشرع الشريف. فبقي بين أظهرنا حتَّى في أبعد القرى وأصغرها نصارى ويهود وصابئة وسامرة ومجوس, وكلهم كانوا وافرين, لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. أما أنتم معاشر الأوربيين فلم تطيقوا أن يبقى بين أظهركم مسلم واحد, واشترطتم عليه إذا أراد البقاء بينكم أن يتنصَّر».[1]

4 ـ الحرية الدينية بين الواقع و المثال :

إننا يجب أن نميز بين المثال وبين الواقع ، فالمبادئ الدينية ، والصيغ الفكرية و النظريات الفلسفية هي "مُثُل" والمُثل ـ عادة ـ تستعصي على كامل التحقيق و التطبيق ، وإلا فرغت حياة الإنسان من " المثال" وأصبحت جحيما لا يطاق أو مواتا لا أمل فيها ولا رجاء ..لكن بقدر ما يكون المثال ساميا ، وبقدر ما يكون دينا ، تتجاوز مقاصد تطبيقاته وإقامته المنفعة الدنيوية ، إلى حيث تصبح هذه الإقامة " للمثال الديني" قربة إلى الله ، وشرطا لسعادة الدار الآخرة ، التي هي خير وأبقى ، بقدر ما يعين ذلك على أن يكون التطبيق و الواقع أقرب إلى السمو وأكثر تعلقا "بالمثال".[2]

---

1) ـ شكيب أرسلان. التعصُّب الأوربّي أم التعصُّب الإسلامي: الأول هو الأشدّ بشهادات شهود من أهله,في لوثروب ستودارد. حاضر العالم الإسلامي. ـ مج 2. ـ ج 3 ص: 210.

2) ـ محمد عمارة . الإسلام و التعددية . ط1، القاهرة ، دار الرشاد ، 1997م ، ص179.

لقد خلت الحضارة الإسلامية من الاضطهادات الراجعة إلى اختلاف اللغات والأقوام والأعراق لأن الإسلام قد جعل عصبية الدم و العرق و النسب جاهلية، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تجاوزها فقال: " دعوها فإنها منتنة" [1].

وكانت الاضطهادات بسبب اختلاف الملل و الشرائع الدينية مقصورة على أسباب أخرى ، ليس من بينها على الإطلاق قصور " المثال " أو " المبادئ" عن تحقيق أوسع للحريات أمام أبناء الملل و الشرائع الدينية المختلفة .

وقد سجل التاريخ اضطهادات تعرض لها أبناء الملل الأخرى . كاليهود و النصارى . في ظل حكم بعض الدول الإسلامية وقد كانت في بعض الأحيان ردود أفعال لتدخلات خارجية واستعمارية صليبية أو ترية ..استخدمت نفرا من أبناء هذه الملل كمطايا ذلول أو طابورا خامسا تخترق به جسم الأمة ، فيضطرب الأمن ، وتهدد دار الإسلام في أمنها وحضارتها .

ومثال ذلك : ما حدث في الحملات الصليبية على بلاد المسلمين ، حيث سعت النصرانية الغربية إلى التحالف مع التتر الوثنيين ضد العرب المسلمين ، وأرسل البابا (إنوسنت الرابع (1243م . 1270م) ، عام 1245م بعثة إلى عاصمة الدولة التترية الشرقية " قراقورم" لهذا الغرض . رأسها مندوب البابا "جون دهبياني كبريني" وجاءت بعثة ترية من " خاقان" التتر " جغطاي" إلى الملك (لويس التاسع1214م . 1270م)، أثناء إقامته بقبرص ، وهو في طريقه لغزو الشام ومصر ، شتاء 1248–1249) ، جاءت لمواصلة مفاوضات التحالف ضد العرب و المسلمين ، ولما عادت البعثة التترية إلى بلادها من قبرص صحبتها بعثة فرنسية صليبية لاستكمال المفاوضات ، واستمرت مساعي التحالف حتى بعد هزيمة لويس التاسع ، فسافرت إلى " قراقورم" من حصن عكا الصليبي بعثة فرنسية رأسها رجل الدين " جليوم ردبورك" واستمرت تفاوض في بلاط " الخان التتري " منكوخان " ستة أشهر !وأخيرا نجح الصليبيون في إقامة هذا التحالف، فحوّل التتار حملتهم إلى بلاد الإسلام بعد أن كان التخطيط أن تتجه إلى أوروبا !.

---

1) . رواه البخاري.

ولقد استعان الصليبيون على عقد هذا التحالف بطائفة النصارى النساطرة ، الذين كان لهم وجود ونفوذ في بلاد التتار ، واستغلوا في ذلك إحدى زوجات " هولاكو" "دوقوز خاتون" وكانت نصرانية الدين نسطورية المذهب ، بل إن قائد جيش هولاكو الذي دمّر بغداد سنة 656هـ/1258م و الشام وزحف نحو مصر ، والذي هُزم في عين جالوت سنة 658هـ /1260م كان نصرانيا نسطوريا هو "كُتبغا " [1].

وكان لهذا الزحف التتري الصليبي أثره في بروز خيانات من الطوائف ذات المذاهب الغربية ، والتي أعلنت تحديها للأمة و الوطن و الدولة في ساعة العسرة ولحظات الشدة .

ففي دمشق . بعد أن اجتاحها التتار . وكما يقول المقريزي (766-845هـ /1365م-144م): " استطال النصارى بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم ، وإقامة دينهم ، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان ، ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات ، وصبُّوه على أبواب المساجد ، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم ، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب ، وصاروا يمرون به في الشوارع إلى كنيسة مريم ، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم ، وقالوا جهرا :" ظهر الدين الصحيح دين المسيح"، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم ، فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو . وهو كتبغا . فأهانهم وضرب بعضهم ، وعظم قدر قسوس النصارى ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم "[2].

وبعد هزيمة التتار في عين جالوت 658هـ بقيادة مظفر الدين قطز ، كان طبيعيا ان يلتفت المسلمون من أهل دمشق إلى أصحاب الخيانة فبادروا إلى دور النصارى فنهبوها ، وخربوا ما قدروا على تخريبه [3].

---

1) . محمد عمارة . **معارك العرب ضد الغزاة** . دمشق : 1988م ، ص116-118.

2). **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك** ، تحقيق : مصطفى زيادة ، القاهرة : 1956م ، ج1/القسم الثاني /ص425-432.

3) . المصدر نفسه . ج1/ص432.

أما على جبهة الحكام الذين كان ظلمهم لبعض أبناء الملل و الطوائف غير المسلمة جزءا من الظلم الذي عمّ الرعية كلها ـ مسلمين وغير مسلمين ـ فإن المتوكل العباسي (233هـ ـ 247هـ /847م –860م)اشتهر عصره بالتضييق على أهل الذمة وإلزامهم ببعض الأحكام ، فاضطرهم إلى عدم التشبه بالمسلمين في لباسهم ،وأن يلتزموا بملابسهم الخاصة بهم ، كما حرم عليهم ارتداء اللون الأبيض ، بل أمر أن تكون ثيابهم مصبوغة بألوان مختلفة ،كما أمر أن يعلق كل من القبط و اليهود صورا مفزعة على أبواب دورهم ، حتى يسهل التمييز بينها وبين دور المسلمين [1]. فاضطر الأقباط إلى إخفاء علامة الصليب ، بل أمر بكسر جميع الصلبان في الكنائس و الأديرة ، ومنعهم من إظهار الصليب أثناء سيرهم في الطرقات كما أمرهم ألا يجهروا بصلواتهم ، كما حرم عليهم الصلاة على موتاهم ، ومنعهم من ضرب النواقيس ، كما منع بيع النبيذ في جميع البلاد المصرية حتى صار لا يوجد خمر يرفع به القداس [2].

ولم يكن هذا الاضطهاد خاصا بالنصارى ، بل كان جزءا من اضطهاده للشيعة و المعتزلة ، فقد أسقط شهادة المعتزلة أمام القضاء ، ونفاهم إلى جزيرة " دهلك" جنوبي البحر الأحمر ، وحرمهم الكثير من حقوقهم الاقتصادية ، ومنع عنهم العطاء ، وكما هدم بعض مقابر النصارى فلقد صنع نفس الشيء بمقبرة الإمام الحسين ، فسواها بالأرض ثم حرثت أرضها وزرعت !.

ومن نماذج استبداد الأقلية من اليهود و النصارى بالأغلبية المسلمة وما أحدثه ذلك من ردود أفعال، عهد " العزيز بالله الفاطمي (365هـ –386هـ /975–996م) وما تلاه من مراسيم ضد أهل الكتاب في عهد ابنه وخليفته الحاكم بأمر الله (375هـ –411هـ /985م –1021م)، فزوجة العزيز بالله كانت نصرانية ملكانية ـ أي من الطوائف النصرانية التابعة للمذاهب الغربية ـ وكانت لهذه الزوجة ولابنتها "سيدة الملك " نفوذ واسع في شئون

---

1) ـ ابن البطريق . **التاريخ المجموع على التحقيق و التصديق** . بيروت : 1909م . ص69، ابن المقفع . **سير الآباء البطاركة** . القاهرة ، 1970م ، م2، ج1، ص4، نقلا عن : فاطمة مصطفى عامر . **تاريخ أهل الذمة في مصر الإسلامية** . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب . 2000م ص189.

2) ـ ابن المقفع . **سير الآباء البطاركة** . م2، ج1، ص4-5.

الدولة ، وكان لها أخوان من رجال الدين النصراني " أرسانيوس" مطران الملكانية في القاهرة ـ ثم بطرك الإسكندرية و" أريسيطس" بطرك الملكانية في القدس [1].

وفي عصر العزيز بالله استوزر عيسى بن نسطورس في مصر ، أما وزارة الشام فرجل يهودي يعرف (بمنشا) بن إبراهيم ، يقول ابن القلانسي : " مال ـ أي عيسى بن نسطورس ـ إلى النصارى ، فقلدهم الأعمال و الدواوين ، واطرح الكتاب المتصرفين من المسلمين ..فسلك ـ أي منشا ـ مسلكه في التوفر على اليهود ، وعيسى مع النصارى مثله ، واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة " ويقول ابن الوردي : " فاستطالت النصارى و اليهود بسببهما " ، أما السيوطي فيقول : " فعزّ بسببهما اليهود و النصارى على المسلمين في ذلك الزمان " وقد أثار قرار العزيز بالله هذا سخط المسلمين، مما جعلهم يصنعون دمية من الورق تلبس ثياب النساء وكتبوا عليها " بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس ، وأعز اليهود بمنشا بن إبراهيم ، وأذل المسلمين بك ـ أي الخليفة العزيز ـ إلا كشفت ظلامتي ؟، وأقعدوا تلك الدمية على طريق العزيز ، فلما قرأها علم ما أريد بذلك ، فقبض عليهما ، ثم أعيد نسطورس إلى وظيفته بشفاعة " ست الملك" ابنة العزيز ، بعدما دفع مبلغ 300دينار للخزانة ، وشرط عليه كما يقول النويري " استخدام المسلمين في دولته وأعماله " [2].

وفي هذا المناخ الذي تستبد فيه الأقلية بالأغلبية نرى الشعراء يدلون بدلوهم في علاقات الملل و الطوائف فيصورون الدولة وكأنها تحكم بالثالوث !، يعقوب بن كلس وأصله يهودي والذي اعتنق الإسلام في سبيل الوزارة ، ولعب دورا بارزا في خلافة المعز لدين الله ،وولده العزيز ، إذ ارتفع شأنه وذاع صيته ، وفي المحرم من سنة 363هـ عهد إليه المعز بولاية الخراج وجميع وجوه الأموال : الحسبة و السواحل والأعشار والجوالي والأحباس و المواريث و الشرطتين وجميع ما يزيد على ذلك في مصر من

---

1) ـ محمد عمارة. **الإسلام و التعددية** . مرجع سابق ، ص183.

2) ـ المقريزي . **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا** . تحقيق . جمال الدين الشيال . القاهرة 1967م ،ابن الأثير . **الكامل** . ج9/ص42. ابن كثير . **البداية و النهاية** . ج11/ص320. النويري . **نهاية الأرب** .

سائر الأعمال ...ويصورون العزيز الخليفة هو الإبن ، والوزير الفضل هو روح القدس ، يصوغ الشاعر الدمشقي الحسن بن بشرا شعرا يخاطب به المسلم فيقول ساخرا :

تنصّر فالتنصر دين حق ... عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا ... وعطّل ما سواهم فهو عُطلُ
فيعقوب الوزير أب وهذا ال ... عزيز بن روح القدس فضل [1]

وفي عهد المستنصر بالله تولى الوزارة سنة 436هـ بمصر صدقة بن يوسف ، وكان يهوديا فأسلم ، وكان معه أبو سعد التستري اليهودي يدبر الدولة ، فقال بعض الشعراء:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا
العزّ فيهم و المال عندهم ... ومنهم المستشار و الملكُ
يا أهل مصر إني نصحت لكم ... تهودوا قد تهوّد الفلك[2]

ويبدوا أن الموظفين من اليهود خانوا ما وكل إليهم من أعمال ، وانتهزوا فرصة المناصب ، فخدموا طوائفهم التي انحدروا منها ، والديانات التي انتسبوا إليها ، وأنزلوا بالمسلمين صنوفا من الأذى !.

وفي نقد الترف والاستبداد اللذين تمتع بهما هؤلاء النفر من النصارى واليهود، يقول الشاعر ابن الخلال :

حكم النصارى في الفروج ... وغالوا في البغال وفي السروج
وذلّت دولة الإسلام طُرًّا ... وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا ... زمانك إن عزمت على الخروج [3]

---

1) . ابن الأثير . الكامل. ج7/ص176. أحمد أمين . **ظهر الإسلام** . ط5،بيروت : دار الكتاب العربي، ج1/ص86.

2) . السيوطي . **حسن المحاضرة** . ج2/ص117،

3) . المقريزي . **الخطط** . ج2/ص123.

وفي الأندلس تولّى الوزارة بن النغريلة إسماعيل وابنه يوسف ، ولفظ النغريلة تحريف لكلمة (ناغيد) العبرية التي وردت في أسفار العهد القديم بمعنى القيّم على المعبد أو المدير أو رئيس القصر أو قائد فصيل من الجيش .

وقد أطلق هذا اللقب على شمويل - أي إسماعيل بن يوسف المكنى بأبي إبراهيم - الذي نشأ بقرطبة واضطرته فتنة البربر أن يغادرها عام 399هـ إلى مالقة ، واستطاع بذكائه وقدرته على صناعة الكتابة أن يصبح كاتب الدولة ، ووثق فيه باديس بن حبوس ولي العهد ، وخاصة بعد أن كشف مؤامرة تدبر ضده ، وكان ابن النرغيلة من المتآمرين ، ولكنه ضحّى بهم ، وفضح مؤامراتهم عند باديس لينال لديه الحظور ، فزادت مكانته ووصل إلى منصب الوزارة ...وكانت لإسماعيل هذا قدرة وبراعة في تنظيم الإمارة وجباية الأموال ، حتى قال فيه ابن حيان في كتابه (الإحاطة) : " وكان هذا اللعين في ذاته على ما زوى الله عنه من هدايته من أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء ودماثة وزكانة ودهاء ومكرا ، وملكا لنفسه ، وبسطا من خلقه ، ومعرفة بزمانه ومدارة لعدوه " .

وقد تمكن إسماعيل بهذا المكر و الدهاء أن يسيطر على الدولة ، وأن يجعل المناصب الهامة فيها حكرا على اليهود ، حتى اكتسبوا واستطالوا على المسلمين.

ولما ولي ابنه يوسف الوزارة من بعده استطاع أن يبعد قبيلة صنهاجة التي يعتمد عليها الأمير باديس وابنه ، ثم لم يكتف بذلك كله بل بلغت به الوقاحة أن يسُبّ النبي محمدا صلى الله عليه وسلم في كتاب وضعه ، ثم وضع كتابا يدّعي فيه معارضة القرآن الكريم ، وذلك في الفترة ما بين 449هـ و456هـ، مما أدى إلى نقمة العلماء والأمة وانتشرت في تلك الآونة قصيدة للشيخ أبي إسحاق الألبيري يُحرّض فيها صنهاجة على التخلص من هذا الوزير اليهودي الوقح ومن كل قومه الذين بغوا وتجبروا وفيها يقول:

وأنـي احتللت بغرناطة	فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها	فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جبايتها	وهم يخصمون وهم يقسمون
وهم يلبسون رفيع الكسا	وأنتم لأوضالها لابسون

وهـم أُمنـاكم علـى سـرّكم وكيـف يكـون أمينـا خـؤون

وردّ ابن حزم على رسالة بان النغريلة ردًّا قويا أثار المسلمين ضد هؤلاء اليهود ن فثارت صنهاجة وثار المسلمون أجمعون ن وقتلوا ابن النغريلة ومن معه من اليهود[1] .

إن القضية لم تكن تناقضا بين الإسلام وبين الملل الأخرى ، ولا عداء من المسلمين لأبناء هذه الملل ولا ضيق صدر بالتعددية ومصادرة لحرية الدين عند الآخرين ، بقدر ما كانت صراعا بين أقلية ظالمة مكّنها الحكام الظلمة على رقاب الأغلبية المقهورة على أمرها .

ويشهد على هذه الحقيقة أن بعضا من أهل الكتاب ممن كانوا يتولون المناصب الحساسة في الدولة أعلنوا إسلامهم ،أملا في تهدئة ثائرة المظلومين من جماهير المسلمين ، لكن ذلك لم يجلب إليهم عطف المسلمين الذين رأوا في هذا الإسلام حيلة لجواز الظلم بل للإمعان فيه !.

يحكي المقريزي فيقول:" لقد زاد تسلطهم بعد إسلامهم ، وأظهروا من التجبر ما كانت تمنعهم نصرانيتهم من إظهاره " فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر النائب يقول:

أسلم الكافرون بالسيف قهرا وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

سلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لامسلمونا[2]

5 ـ من أهل الذمة ..طابور خامس !:

لم يكن أهل الذمة على اختلاف أديانهم على مستوى واحد من الوفاء والإخلاص للدولة القائمة ، فقد حزّ في أنفس البعض منهم أن الحكم للإسلام ، بالرغم من الدلال و الرفاه الذي يلقونه في دولته وتحت ظل سيادته ، فكانوا لا يتركون فرصة للغدر و الخيانة إلا انتهزوها ، ولا يألون جهدا في تقديم العون للغازي الصليبي

---

1) . محمد علي البار . **معاملة غير المسلمين . الحوار و التسامح في الإسلام . شواهد من التاريخ .** ، ط1، دمشق : دار القلم ، 2004م . 174-177.

2) . المقريزي . **الخطط** . ج3/ص545-547.

المتربص على الحدود . فنقرأ في الحملة الصليبية الأولى " أن لمسيحي " أرتاح" أثر كبير في استيلاء الفرنج عليها سنة 490هـ /1097م ، حيث قام سكان البلد المسيحيون بذبح الحامية الموجودة في "أرتاح "، وعندما اقترب الصليبيون من أنطاكية لم يجدوا صعوبة في التماس الأصدقاء داخل المدينة ، ذلك أنه انضم إلى المعسكر الصليبي عدد كبير من المسيحيين من سكان أنطاكية الذين دأبوا على الاتصال بأقاربهم في داخل المدينة من خلال باب القديس جورج في الغرب ، فتيسر للصليبين الوقوف على ما يحدث داخل أنطاكية ، وقد قاسى الصليبيون من المجاعة التي لحقت بهم أثناء حصار أنطاكية حتى إنه كان يموت شخص من بين كل سبعة أشخاص ، ولذلك سارع النصارى والأرمن بتقديم كل ما استطاعوا جمعه إلى المعسكر الصليبي .فشكلوا طابورا خامسا([1]) لنجاح الحملة الصليبية الهاجمة .

وكان للنصارى أيضا دور ملحوظ في استيلاء الفرنج على معرة النعمان 491هـ /1098م ، وعندما اشتد الجوع و العطش بالصليبيين المحاصرين لبيت المقدس سنة 492هـ قام النصارى بدور المرشدين إلى مناطق الغابات و الينابيع ، كما أنهم ساعدوا صنجيل الفرنجي في حصار طرابلس سنة 495هـ [(2)]. وأما الأرمن فيتضح موقفهم عندما وصل الصليبيون إلى منطقة أمنية في جبال طوروس فقد مدّ لهم سكانها من الأرمن المسيحيين يد المساعدة وأحسنوا استقبالهم ومعاملتهم ، وزودوهم بكل ما كانوا يحتاجون إليه من مؤن وأقوات ، ولولا ذلك لأخفق الفرنج في مواصلة الزحف ولألحق بهم السلاجقة هزيمة منكرة ، ولكن هذه المساعدات التي تلقوها من الأرمن هيأت لهم الجو لمواصلة العدوان المسلح و التوغل في الشرق الإسلامي [(3)].

وما قام به الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي من إلزام اليهود الذين أظهروا الإسلام بتمييزهم في الزي عن المسلمين لأنهم لم يكفوا عن أذى المسلمين و

---

1) . عند حدوث نزاع أو حرب بين دولتين، فإن الأشخاص الذين يقيمون في إحدى هاتين الدولتين ويناصرون الدولة الأخرى، ويقومون بنشر الشائعات في أوساط الشعب وبث الروح الانهزامية لتثبيط همة الشعب وإحباطه لصالح الدولة الأخرى، هؤلاء الأشخاص يطلق عليهم اسم الطابور الخامس.

2) . ابن الأثير . **الكامل** . ج8/ص446.

3) . علي محمد الصلابي . **دولة السلاجقة** . ط1، القاهرة : مؤسسة إقرأ، 2006م ، ص506.

التجسس عليهم ونقل أسرار المسلمين إلى الأعداء ن فوضع لهم لباسا مميزا عبارة عن ثياب كحلية اللون ذات أكمام مفرطحة السعة ، وطولها يصل إلى أقدامهم ، وبدلا من العمائم ، جعل على رءوسهم (كلوتات) واصلة إلى ما تحت آذانهم ، وشاع هذا الزي بين جميع يهود المغرب ، ويبرر الخليفة هذا العمل بقوله : " لو صحّ عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم "[1].

وقد شملت هذه الإجراءات العقابية بلاد الأندلس حتى وجدنا لها صدى في كتاب ابن عبدون (آداب الحسبة ، من ارتداء النصارى و اليهود ثيابا معينة ، وألا يركب أحد منهم جوادا)، لأن نصارى الأندلس كانوا يعملون لحساب ملوك النصارى ، وكثيرا ما أغروهم بحروب المسلمين وغزوهم [2].

وتذكر المصادر العربية أن صلاح الدين الأيوبي عندما كان وزيرا للخليفة العضد لدين الله (آخر الخلفاء الفاطميين 555-567هـ /1160-1171م)، شدد على أهل القصر ، واستبد بأمور الدولة ، وأضعف جانب الخلافة ، وقبض على أكابر أهل الدولة ، مما دفع مؤتمن الخلافة جوهر (قتل عام 564هـ /1168م)وهو أحد الأساتذة المحنكين بالقصر إلى الاتفاق مع عدد من الأمراء المصريين و الجند لاستدعاء الفرنج إلى القاهرة ، حتى إذا خرج صلاح الدين لقتالهم بعسكره ، ثاروا هم بالقاهرة ، واجتمعوا مع الفرنج على إخراجه من مصر ، لكن هذه المؤامرة كُشفت عندما قُبض على الرجل الذي كان يحمل الرسالة للفرنجه ، وقد أجمعت أغلب المصادر العربية على أن كاتب هذه الرسالة كان أحد الكتاب اليهود وإن لم تذكر اسمه ، وأن صلاح الدين عندما أمر بقتله اعتصم بالإسلام وأسلم [3].

---

1) . المراكشي . **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** . تحقيق : سعيد العريان ، القاهرة ، 1949م ص304-305.

2) . نريمان عبد الكريم أحمد . **معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية**، مرجع سابق، ص68-69.

3) . هويدا عبد العظيم رمضان . **اليهود في مصر الإسلامية . من الفتح الإسلامي حتى العصر الأيوبي** . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2001، ص424.

وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية نفهم التحليل الموضوعي الذي كتبه الباحث اللبناني" جورج قرم " والذي لا يمكن أن يكون متهما !، و الذي يقيّم فيه العلاقات بين المسلمين وأبناء الملل و الطوائف غير المسلمة ، فيقول :

" ..ويلاحظ أن فترات التوتر أو الاضطهاد لغير المسلمين في الحاضرة الإسلامية كانت قصيرة وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

الأول : هو مزاج الخلفاء الشخصي ، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون ، وقعا في عهد الخليفة المتوكل الميال بطبعه إلى التعصب و القسوة ، وفي عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي غالى في التصوف حتى ضاع رشده !.

العامل الثاني : هو تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين الشاغلين لمناصب إدارية عالية ، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار .

العامل الثالث : فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية ، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة .إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ، ويستنزفوه بالضرائب ، وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضا ، حيث أظهرت أبحاث " جب" و" وبولك" و" وبولياك" كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الإقتصادي أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى و المسلمين في دمشق 1860م ، وبين الموارنة و الدروز في جبال لبنان 1840م و1860م ، ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها في أما كن عديدة ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ولا سيما الأرمن التي تعاونت مع الغازي ..

بل إنه كثيرا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي - حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح - سببا في نشوب قلاقل طائفية ، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز ، وفي مراعاتهم وتحيزهم - إلى حد الصفاقة أحيانا - لأبناء دينهم ، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة .."[1].

---

1) - جورج قرم . تعدد الأديان ونظم الحكم ، دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة ، بيروت :1979م ص211-224، نقلا عن محمد عمارة . الإسلام و التعددية .و مرجع سابق ، ص186-187.

وفي الحملة الفرنسية على مصر ، استطاع نابليون بونابرت إغواء مجموعة من نصارى الشام ومصر للتعاون معه حتى قال الجبرتي : " إن المعلم يعقوب حنا (1745-1801م) تعاون تعاونا وثيقا مع نابليون ، وجنّد مجموعة من الأقباط ليحاربوا المسلمين ، فاشتركوا مع جيش فرنسة في احتلال القرى ، ونهبها ، وجعل لهم بونابرت نصف عضوية (ديوان المشورة) أي أنهم صاروا نصف مجموعة الأعضاء ، والباقون هم من كبار الضباط الفرنسيين " ويقول الجبرتي : " إن الجنرال كليبر فوّض ليعقوب اللعين أن يفعل بالمسلمين ما يشاء ، حتى تطاول النصارى من القبط ونصارى الشوام على المسلمين بالسبِّ و الضرب ، ونالوا منهم أغراضهم ، وأظهروا حقدهم ، ولم يبقوا للصلح مكانا ، وصرّحوا بانقضاء ملة المسلمين والموحدين "[1] .

وفي ثورة أحمد عرابي قام الإنجليز باحتلال مصر وتعاون معهم خائن من الأقباط ولّوه الوزارة هو(بطرس غالي) [2]، وفي ثورة 1919 م كان يوسف وهب باشا النصراني عميلا للإنجليز ، وخان الأمة وألّف الوزارة .

ولا شك أن كثيرا من الأقباط في مصر و النصارى في في الشام كانوا ضد الاستعمار ، ومع مواطنيهم من المسلمين ، ولم مواقف مشرفة جدا ، ففي ثورة 1919م وقف غالبية الأقباط في مصر مع الثورة ضد الإنجليز ، واتحدت الأمة نصارى ومسلمين ضد الإنجليز ، وكان من أشهر خطباء الثورة مكرم عبيد (النصراني) الذي كان يحفظ القرآن ، ويستشهد بآياته ، ويقول : " نحن مسلمون وطنا ، ونصارى دينا ، اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك ، وللوطن أنصارا ، اللهم واجعلنا نحن نصارى لك ، وللوطن مسلمين " [3].

---

1) . الجبرتي . **عجائب الآثار في التراجم والأخبار** .

2) . وهو جد بطرس غالي الذي تولى وزارة الخارجية في مصر ، وثم صار الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة . ومن المعلوم أن بطرس غالي الحالي زوجته يهودية .

3) . محمد عمارة . **في المسألة القبطية . حقائق وأوهام** . القاهرة : دار الشروق ، 2001، ص132، محمد علي البار . **معاملة غير المسلمين** . مرجع سابق ,.ص199-201.

6 ـ الزنادقة في مواجهة الأمة :

أما ما اشتهر من مطاردة الدولة العباسية وخاصة في عصر المهدي (158-169هـ /775-785م) فإنه لم يكن اضطهادا لديانات الفرس القديمة ـ فلقد عومل أهلها معاملة أهل الكتاب ـ ولا كان قمعا للحرية الدينية ، ولا ضيق صدر بالتعددية في الملل و الشرائع ، لأن هذه الزندقة كانت شعارا دينيا ظاهره الدعوة إلى فكر المانوية بكل ما يحويه من عقيدة دينية وتراث فكري يُطرح كبديل للعقيدة و التراث العربي الإسلامي ..ليس هذا فحسب بل اعتباره مجالا للتفاخر به أمام تراث المسلمين ودينهم ، واحتقار الجنس العربي ، والتآمر بمخططات شعوبية سياسية لاستهداف الإسلام كعقيدة وشريعة ، واستهدفت قيم الدولة وعروبتها ، التي حرص كل الخلفاء العباسيين الأوائل على إظهارها ، وإضمار الحقد على أمة الإسلام التي فشلوا في منازلتها عسكريا ، فنقلوا المعركة إلى الساحة الفكرية العقائدية يريدون تشويه الإسلام وضربه في الصميم . مما شكل من الزندقة جبهة عدائية للمجتمع و السلطة .. وهو ما جعل المهدي يضرب بضربة من حديد كل من دعا دعوة الزنادقة ، وذهب مذهبهم ،بل أنشأ ديوانا لهم سماه " ديوان الزنادقة " ، ونفس الشيء فعله الرشيد (149-193هـ) عندما نكب البرامكة ، وأجلاهم عن السلطة ، وطردهم من مناصبهم العليا ،،،فهو دفاع عن الدولة وفكرها وهويتها ، فالبرامكة لم يتخلصوا من ولائهم لديانتهم القديمة كالمانوية و المزدكية ..حتى قال الإصمعي يصفهم :

إذا ذكر الشرك في مجلس ... أضاءت وجوه بني برمك

وإن تليت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدك

" لقد ظلت التطبيقات الإسلامية للتعددية و الحرية الدينية في أرجاء المملكة الإسلامية زاهية مزدهرة متألقة ،إذا ما قورنت بنظائرها في الحضارات غير الإسلامية ، وقد كان ضيق الصدر عارضا موقوتا ، تغالبه مبادئ الإسلام ، ومواريث الأمة في تطبيقات التعددية و الحرية و التنوع في عصور الازدهار ، ويدعم هذه المغالبة أن " المثال " في النموذج الحضاري الإسلامي هو " دين" ووضع إلهي ثابت ، وليس مجرد

نسق فكري من التسامح أو حقوق الإنسان ، يجوز تخطيه ، أو التنازل عنه ، أو تجاوزه بحال من الأحوال " [1].

ويعبر عن هذا التوجه ما ذكره المستشرق الألماني " بكر كارل هيزش Becher.G.H(1876–1933م)صاحب الدراسات المقارنة بين المسيحية والإسلام شاهدا على سماحة الإسلام وعلى ازدهاره في مناخ الحرية التي أقامها فيقول : " فالدين الإسلامي أقام بناءه المذهبي في جو من التفكير الحر بعكس الدين المسيحي الذي تمثله كنيسة قائمة على طغمة ، أي على نظام تصاعدي ، وبيدها خلاص الناس ، ففي الإسلام كان مجال الاختلاف أوسع بكثير منه في المسيحية ، لأنه لم يكن به شيء يشبه القاضي الذي يُصدر الحكم الفاصل لا استئناف له .." [2].

والعالم الإنجليزي الحجة "سير توماس أرنولد" يشهد للحرية الدينية التي قرّرها الإسلام وحضارته، والتي وسعت التنوع والاختلاف، وأتاحت إنقاذ النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية البيزنطية، حتى ليمكن القول: إن بقاء النصرانية الشرقية هو "هبة الإسلام".[3]

وتقول المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاغليري) عن روعة انتشار الإسلام : " أية قوة عجيبة تكمن في هذا الدين ؟ أية قوة داخلية من قوى الإقناع تنصهر به ؟ ومن أي غور سحيق من أغوار النفس الإنسانية ينتزع نداوة استجابة مزلزلة؟" .

والعالم الألماني الحجة "آدم متز" يتحدث عن دور غير المسلمين في إدارة دواوين الدولة الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي، فيقول: "لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام".[4]

وشهد شاهد من أهلها .

---

1) . محمد عمارة . **الإسلام و التعددية** . مرجع سابق . ص188.

2) . بكر ، كارل . هيزش . Becher.G.H. **تراث الأوائل في الشرق و الغرب** . دراسة منشورة بكتاب الدكتور عبد الرحمن بدوي . **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية**.القاهرة، 1965م ص12.

3) . سير توماس أرنولد.**الدعوة إلى الإسلام**. ص 729-730..

4) . **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج 105/1.

وبعد : فإن الوسطية الإسلامية اقتضت أن تنظر إلى أصحاب الديانات و الملل والنحل و الشرائع غير الإسلامية على أنها تعددت من آدم عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون لا يتسامحون فقط مع الآخر ، ويوفرون له أجواء حرية المعتقد إيمانا وممارسة، بل يسعون إلى التمكين له ، إلى حيث أصبح الآخر في الدين جزءا من الذات الدينية الواحدة ، وقد سبقت الحضارة الإسلامية سبقا بعيدا في هذا المضمار لم تبلغ الحضارات الأخرى معشاره ولا أقل من ذلك.